دور الكاتب في الحياة

بقلم ألبير كامو

هذه ترجمة للكلمة التي القاها البير كامو في ستوكهلم حين تسلم جائزة نوبل للاداب

*

انني اذ أتلقى التقدير الذي شاءت أكاديميتكم الحرة، عن رغبة صادقة ، ان تشرفني به ، أحس بالشكر عميقا في نفسي ، رغم ان هذه المكافأة اكثر بكثير من جميع استحقاقاتي الشخصية . ان كل انسان ، و .. لسبب اوجه ، كل فنان ، يتمنى ان يعترف به ، وان تطبق شهرته الافاق ، وانا ايضا ارغب في ذلك ، ولكني ، لم أتمالك نفسي ، عندما علمت بقراركم هذا ، عن عقد المقارنة بين الدوي الذي سيحدثه ، وبين ما انا عليه حقيقة . اذ كيف يمكن لرجل شاب تقريبا ، غني بشكوكه فقط وبمؤلفات لم تبلغ ذروتها بعد ، رجل تعود على ان يعيش في عزلة العمل، او في خلوات الصداقة ، ان يتعرض هكذا لوقفة تنقله دفعة واحدة وتضعه في قلب نور قوي ساطع ، دونما شعور بالرهبة ؟ وبأي قلب كان يمكنه أن يتلقى هذا الشرف ، في الساعة التي يقبع فيها العديد من بين كبار الكتاب في اوروبا في ظلام الصمت ، وفي نفس الوقت الذي تعاني فيه أرضه التي ولد عليها من شر بلية لاتنتهي ؟!!

لقد تعرضت للتشويش والاضطراب الداخليين ورحت ابحث عن طريق الطمأنينة والاستقرار ، فلم اجد ماهو افضل من ان اوفق بين نفسي وبين قدر غزير الكرم ، ولما لم اكن لاستطيع ان اطمئن اليه ، باعتمادي على مؤهلاتي فقط ، فقد تبينت ان ليس هنالك من شيء اخر يساعدني، الا مادعمني طيلة حياتي ، في اشد الظروف تناقضا : «الفكرة التي احملها عن فني وعن دور الكاتب » ، واسمحوا لي، مسايرة لشعور بالاعتراف بالجميل والصداقة ، ان اشرح لكم هذه الفكرة ، بأبسط العبارات .

ليس في مقدوري شخصيا ان اعيش بعيدا عن فني . ولكنني ، قط ، لم اضع هذا الفن فوق الجميع ، بل وعلى العكس تماما ، اذا كان هنالك من امر ضروري بالنسبة لي ، فهو في الا ينفصل عن أي شخص كان ، وفي ان يسمح لي بالحياة ، على حقيقتي ، في مستوى الجميع . اذن ، فالفن لايبدو لناظري تمتعا انفراديا ، بل هو الوسيلة الفعالة لتحريك الغالبية العظمى من البشر ، عندما يقدم اليهم الصور المحددة عن الافراح والالام المشتركة . فهو ، والحال هذه ، يفرض على الفنان الا ينعزل بنفسه ، كما يخضعه للحقيقة الاكثر بساطة والاكثر عالمية وانتشارا . أما ذلك الذي اختار قدرة لاحساسه بالتميز عن غيره ، فانه يتعلم سراعا انه لن يغذي فنه وتميزه ذاك ، الا اذا اعترف انه في ذلك صنو للجميع . والفنان يتوضع في هذه الرجعة الازلية منه الى الاخرين ، ويتخذ موقفا وسطا بين الجمالية التي لايستطيع ان يتخلى عنها ، وبين الجماعة التي لايقدر ان يقتلع نفسه منها او ان يقطع مابينه وبينها . وهذا يفسر لنا لم لايحتقر كبار الفنانين شيئا ، انهم يحسنون الى انفسهم كل الاحسان اذ يتفهمون ويقدرون ، بدلا من ان ينصبوا من انفسهم قضاة للغير . وان كان في هذا العالم من مكان غير مكانهم ، يطمحون في الوصول اليه ، فهو ولا ريب المكان الذي قال عنه نيتشه انه « لن يسيطر فيه القاضي بعد ، بل المخلوق ، عاملا كان او مفكرا » .

ودور الكاتب ، على نفس الصعيد ، لاينفصل عن الواجبات المرهقة ، وعلى وجه التحديد ، انه اليوم لايستطيع ان يضع نفسه في خدمة اولئك الذين يصنعون التاريخ ، بل هو لسان حال الذين يتحملون نوائبه ويعيشون شروره وآلامه . وان لم يفعل ، فانظر اليه قابعا وحده ، في منأى عن فنه . ان جيوش البغي مع الآلاف من انصارها لاتقدر ان تنتزعه من وحدته التي هو فيها ، خصوصا اذا كان يصر على ان يتأثر خطاها . ولكن صمت سجين مجهول ، مهجور ، تلتهمه نظرات الاحتقار في الطرف الاخر من العالم ، يكفي لينتشل الكاتب من منفاه . ويكفي ان يتذكر هذا الصمت ، كلما عبر بتفكيره الى حدود الحرية ، حتى يجعله يدوي في العالم عن طريق الفن .

ان أيا منا لم يصبح بعد قادرا على تلبية مثل هذه الدعوة ، ولكن الكاتب في ظروف حياته المختلفة ، المغمورة او المشهورة لمدة محدودة ،سواء كان مرميا تحت حديد البغي يسحقه ، او حرا لفترة معينة يعبر فيها عن نفسه ، يستطيع ان يكتشف مجموعة حية تبرره . والمهمتان اللتان تعطيان مهنته قيمة كبرى ، في الوضع الاوحد الذي يرتضيه ويدعمه بكل قواه هما : خدمة الحقيقة وخدمة الحرية . اذ ان الدعوة الموجهة اليه تتطلب منه ان يجمع حوله اكبر عدد ممكن من الناس ، فهي ، والحال هذه ، لاتستطيع ان تساير الكذب والعبودية ، اللتين تخلقان العزلة والانفراد حيث تنتشر سيطرتهما . ومهما يكن لنا من نزوات فان شرف مهنتنا ستتأصل جذوره ابدا في عهدين اثنين ، رغم صعوبة الوفاء بهما : رفض الكذب فيما نعلم ، ومقاومة الاضطهاد .

وهكذا ، كنت قد دعمت ، ابان ماينيف على عشرين

عـاما ، من تاريـخ مكذوب ، ضائـع ولا من نجدة ، مـع جميع أقراني الذين كانت تروح وتجيء بهم تشنجات ذلك العصر ، من الشعور الخفي بان الكتابة اليوم صارت شرفا، وصار لها فضل كبير ، لا في مجرد الكتابة فقط . لقـد كانت لها يد فضلى علي . بشكل خاص ، اذ مكنتني مـن ان أتحمل ، في حدود قواي ، مع جميع الذين كانـوا يعيشون نفس التاريخ ، البلية والاقل اللذين كنا نتقاسمهما معا . ان على اولئـك الذين ولدوا فـي بـداية الحـرب العالمية الاولى ، والذين بلغوا من عمرهم العشرين ، فـي الوقت الذي كانت تتوضع فيـه وتتميـز ، في آن واحد، القوة الهتلرية وأوائل القضايا الثورية التي ضرب على يدها بقوة فيما بعد ، لتستكمل ثقافتها ونضجها في الحـرب العالمية الثانية ، وفي العالم المتخرب احلافا احلافا ، وفـي اوروبا الغارقة في التنكيل والسجون ؟ على هؤلاء ان ينشئوا اليوم ابناءهم ومؤلفاتهم في عالم مهدد في كل لحظة بالتدمير النووي المريع . وانا أزعم ، ان شخصا ما ، لايستطيـع ان يطلب منهم ان يكونوا متفائلين . وفي رايي انـه يجب علينا ان نعي ، دون وقف النضال ضدهم ، خطأ اولئـك الذين طالبوا ، بعد ان تفاقم اليأس عندهم ، في ان يكـون لهم الحق في الاثم وفي كل ماهو مناف للشرف ، وانقضوا على المذهب العدمي nihilisme يجعلون منه لهـم دينا . ولكن ، يجب علي ان اذكرها هنا ، ان الغالبية العظمى من بيننا في وطني ، وفي اوروبا ، قد رفضت هذا المذهب العدمي وراحت تبحث عن حدود شرعية تفيء اليها . ولقد توجب على الكتاب ان يوفقوا بين فن يدعو الى الحيـاة وبين زمن ترتعيه النكبات ، كي يولدوا مرة ثانية ، ويقاتلوا بعدها بوجه مكشوف ، ضد بذرة الموت التي احتواها المؤلف في عصرنا .

ان كل جيل ولا شك ، يعتقد انه واقف نفسه مـن اجل اعادة بناء العالم . اما هذا الجيل فهو يعلم انه لن يفعل ذلك ابدا . ولكن واجبه مع هذا قد يكون اكبـر واعـظم . ذلك انه يهدف الى منع العالم من التفكك والانهيار . ان ذلك الجيل الذي هو ارث تاريخ تلف ، حيث تتمـازج الثورات التي اعطت وحادث عن طريقها ، والمفاهيم التـي غدت محمومة مجنونة ، والآلهة الميتة ، والافكار المتهالكة ؟ حيث تستطيع اليوم قوى عمياء تدمير كل شيء ، ولكنهـا لم تعد تعرف كيف تقنع ؟ حيث تضاءل العقل وانحنى حتى صار مطية وخادما للكراهية والاضطهاد ، هذا الجيل قد توجب عليه في نفسه وفيما حوله ، واعتبارا من مواقفه السلبية ، ان يجدد بناء مايعطي كرامة الحياة والمـوت . وكذلك فهو يعلم ، اذ يرى أمامه عالما متفسخا ، يجـرب مفتشونا ان يقيموا فيه الى الابد صروح ممالك المـوت، انه يجب عليه بنوع من الركض المحموم المعاكس لسيـر الزمن ، ان يعيد بناء السلم بين الاوطان ، على الا يكـون هذا سلم عبودية وان يوفق بين هذا العمل وبين الاخلاق، وان يقيم من جديد ، يدعمه جميع البشر ، اقواس التناصر والتعاضد . وليس من المؤكد ان باستطاعته ، مهما طـال به الوقت ، ان يتم هذا الواجب الكبير ، ولكن المؤكد ، انه سيتخذ في جميع انحاء العالم رهانه المضاعف بالنسبـة للحرية والحقيقة ؟ و ... عندما يازف الوقت ، سيعرف كيف يموت دونما كراهية أو حقد . ذلك الجيل هو الـذي يجب ان يشجع ويحيى حيثما وجد ، وعلى الخصوص ، حيث يضحي بنفسه ؟ والى هذا الجيل يتوجب علي وانـا واثق من موافقتكم العميقة ، ان اهب الشرف الـذي

عدد « الاداب » الممـتاز

كتاب ضخم في أهم موضوع معاصر

علاقة الادب بالفلسـفة

لا تدعـه يفوتـك

اضفيتموه علي منذ قليل .

بعد ان تكلمت عن شرف مهنة الكتابة ، اكون قـد أسلمت الكاتب الى مكانه الحقيقي دون ان يكون له مـن ألقاب سوى تلك التي يتقاسمها مع شركائه في النضال ، قابلا للتجريح ولكنه متصلب في رأيه ، غير عادل ، ومتأثرا بريح العدالة ، بانيا مؤلفه من غير ماخجل او كبرياء علـى مرأى من الجميع ؟ متخذا موقفه بين الالم والجمال و .... اخيرا ، واقفا جهده على ان يستخرج من كيانه المضاعف الكائنات التي يحاول باستمرار ان يجعلها ميالة نحـو الفضيلة ، داخل حركة التاريخ المدمرة . من ، بعد هذا ، ينتظر من الكاتب ان يأتيه بحلول معلبة لاخلاقيات منمقة؟؟ الحقيقة مغلفة بالاسرار والابهام ، زئبقية تفر عند محاولة امساكها والحرية خطرة ، يصعب على المرء ان يحياهـا ما دامت مغوية ، ومع ذلك فهذان هما الهدفان اللذان يجب ان نتخذهما وجهة لنا ؟ واثقين مسبقا من الخور الكامـن في هذا الطريق الطويل .. من من الكتاب يجرؤ بعد هذا، بضمير مطمئن ، ان يجعل من نفسه صيادا للفضيلة ؟؟ اما انا ، فاني اقولها مرة اخرى ، لست من ذلك في شيء . وانا ما استطعت ، قط ان انزوي عن النور ، او ان انكـر سعادتي بوجودي وبالحياة الحرة التي عشتها . من المؤكد ان هذه العاطفة الوطنية تفسر الكثير من زلاتي وعثراتي، ولكن هذه العاطفة ، من جهة اخرى ، ساعدتني على ان افهم بشكل اكثر وضوحا واجب مهنتي ، كما تساعدني ايضا على ان أتخذ لي موقفا مصرا الى جانب جميع أولئك الاناس الصامتين الذين لايرتضون ان يتحملوا الحياة المصنوعة لهم صنعا ، في هذا العالم ...

بعد ان اهتديت هكذا الى ماانا عليه حقيقة ، الـى حدودي ، والى واجباتي ، كما اهتديت الى الطريق الشائك الموصل الى ضميري ، أشعر انني اكثر قدرة على ان ادلكم اخيرا على متسع وكرم التقدير الذي اظهرتموه لي منـذ قليل ، واكثر حرية كي اقول لكم انه يتوجب علي ان اقبله كتكريم لكل أولئك الذين يشاركوني نفس المعركة ، والذين لم ينالوا اي امتياز بل عرفوا ، على العكـس ، المصائـب والتنكيل ، بقي علي الان ان اشكركم على ماقدمتموه الـي من اعماق قلبي ، وان اقطع على نفسي امام هذا الجمـع ، اظهارا لشكري الشخصي ، عهدا صادقا بالامانة ، هـو نفس العهد القديم الذي لايني يقطعه على نفسه كل فنـان اصيل ، صباح مساء .

ترجمة سلمان حرفوش
كلية الاداب ـ جامعة دمشق